

مشكلة المفهوم في تاريخ العلوم

جورج كانغيلام أنموذجًا

توفيق بن ولهة

باحث جزائري

toufik34200@gmail.com

[ملخص البحث]

إن المفهوم والحياة لهما العمر نفسه تقريبًا، ذلك أن كلاهما أسس للبحث فيهما أرسطو، من خلال وضعه للمنطق من أجل ضبط المفهوم في كتابه «التحليلات»، كما ضبط مبادئ علم البيولوجيا الذي يبحث في الحياة من خلال كتابه «الحيوان»، لكن هذا التقارب لم يدم طويلًا نظرًا لارتباط المفهوم بالفلسفة أما الحياة فارتبطت بالبيولوجيا، والذي أعاد إحياء هذه العلاقة هو الفيلسوف الفرنسي جورج كانغيلام (G.Canguilhem)، من خلال مشروعه الإبستمولوجي الذي زاوج مع تاريخ العلوم، هذا الفرع الجديد كان مجال اشتغاله الحفر في نشأة المفاهيم، قصد تمييزها عن باقي المفاهيم المتداخلة معها، بهذا نبنى هرم انتسابي لتشكل المفهوم، قاعدة هذا الهرم نظريات تنبش في تشكله، ورأسه مصطلح يضم له حيوزات تنضوي تحتها ما صدق عنه هذا الوصف. وفي علوم الحياة التي شكلت فضاء دراسة المفهوم في هذه الإبستمولوجيا، أوكل كانغيلام مهمة صيانة المفهوم إلى مؤرخ العلوم، الذي يطعم عمله بالنقد الإبستمولوجي، خاصة أمام حركة النقل الممارسة على المفاهيم من مجال إلى آخر، والتي قد تبدو عنيفة عندما ينقل المفهوم من مجال استعماله الأصلي إلى مجال آخر بعيد عنه على سبيل الإعارة، أين تمر المفاهيم في هذه الحالة من صورتها النوعية الوصفية لتصبح مفاهيم في حقل آخر تحمل دلالات كمية، وتصبح قابلة لتصنيف الحالات العادية وغير العادية وفق نموذج يخالف طبيعة الحياة، كما تسمح هذه العملية بتسلل الكثير من المفاهيم متداخلة الوظيفة، فليست كل المفاهيم تبذل نفس الجهد لإيصال المعنى، فهناك مفاهيم أصلية ومفاهيم طفيلية، ولهذا عمد كانغيلام من خلال مشروعه على تنقية مفاهيم علوم الحياة من تدخل تلك المفاهيم الغريبة عنها.

الكلمات المفتاحية: المفهوم، الحياة، الإبستمولوجيا، تاريخ العلم، الطب، العادي، المرضي، الوصفي، المعياري ...

[Abstract]

The concept and life are almost the same, so the two foundations of research where Aristotle, by his logic to adjust the concept in his book «analysis», and define the principles of biology that looks at life through his book «Animal», but this convergence is not due to short duration to connect the concept of philosophy, but the French philosopher G. Canguilhem has revived the relationship between life and biology, through the epistemological project that has the connection with the history of science, this new branch was the functional area of the genesis of concepts, in order to distinguish them from the overlap with other concepts. The last considered as a base to build a pyramid to form a concept, the basis of this theory of the pyramid unearthed in the pose, and its top includes its compartments of this description. In the life sciences, which formed a spatial study of the concept in this epistemology, Canguilhem entrusted the maintenance of the concept to the historian of science, who nourishes his epistemological work, especially in view of the change of concepts of the field to another, which may seem violent when it conveys the concept of the zone of original use to another distant within, where to pass the image of concepts in this case the quality of metadata to become concepts in another domain carrying the semantic quantity, and become the object of the classification of normal and abnormal cases, according to the model contrary to the nature of life, this process will allow the infiltration of many overlapping of function of the concepts, it is not all the concepts make the same efforts to transmit the meaning, there are original and parasitic concepts, that's why Canguilhem deliberated by its project on the purification of the concepts life sciences to enter foreign concepts.

Keywords: The concept, life, epistemology, history of science, medicine, normal, pathological, descriptive, normative ...

تمهيد:

نبهتنا الإستيمولوجيا الكانغيلامية، وتلك بعض مزاياها، إلى أن المفهوم يدرج المصطلح على منحدر المعنى حتى يكتسب ملامحه، فهو لا يحيا إلا في غفلة عن المسلمات اللأ شعورية لأول استعمال له، هذا المصطلح الذي يقوم من المفهوم مقام الضامن لتجسيد المعنى، قد يتحول في وقت من الأوقات إلى وسيلة ضاغطة، تمنع تشظيه وتعمل على حصر تمدده، تحت تأثير قوى التَّنْظير الكابطة التي تظهر المفهوم بخلفيات صامتة، فتشكل عبر تاريخ استعماله صوراً نمطية تتمحي معها ملامحه الموضوعية، وتعلق به شوائب تحيلنا لمختلف السياقات التي تناقلته. هذا الاستعمال المتكرر شجع على تنشيط فعل الاستعارة لحقول متغايرة، ومن عقول غير محترفة في بعض الأحيان، جعلت المفهوم يظهر في عدة مناسبات، قد لا يكون هو المحتفى به فيها، فيظهر المفهوم في نصوص مغايرة شاحب المعنى، ضعيف الأثر، وقد يفقد فيها الحياة في بعض الأحيان أو ما يمكن أن نسميه «موت المفهوم»، (la mort de la concept)، إن المفهوم له حياة وبيئة يمارس فيها حياته كما أن له معياريته الخاصة، وفي حديثنا عن المفهوم وعلاقته بالحياة، يمكن أن

نعود هنا إلى تلك المقاربة الرائعة التي قدمها الفيلسوف الفرنسي جورج كانغيلام (GeorgeCanguilhem) (١٩٠٤-١٩٩٥م) لهذه العلاقة، لكن قبل أن يبدأ كانغيلام تحليله لهذه العلاقة؛ فإنه يظهر نوع من الاندهاش أمام البدايات التي تحكم هذه الثنائية، فيقول: «قد يبدو من المدهش أن يتعين علينا التساؤل عن علاقة المفهوم بالحياة، أليس لنظرية المفهوم ونظرية الحياة السن نفسه، والكاتب نفسه؟ ألم يكن أرسطو منطقي المفهوم ومصنفا للكائنات الحية؟ أليس الكشف عن أنماط التوالد الحيواني هو النموذج الذي ارتكز عليه أرسطو في تركيب منطقه؟»⁽¹⁾، وإذا كان للمفهوم حياة فلماذا ترجع أبوة هذا المفهوم؟ وهل لمؤرخ العلوم دور في الكشف عنها؟ وهل المفاهيم المشكلة للحياة تأخذ مدلولاتها من العلم أم من الحياة نفسها؟

(١) المفهوم والحياة، جدلية التوالد المستمر:

لقد اشتغل كانغيلام بمشكلة علاقة المفهوم بالحياة، في إطار البحث المفضل لديه وهو تاريخ العلوم، هذا المبحث

(1) Canguilhem, Etudes d'histoire et de philosophie des sciences, Paris, Librairie Philosophique j.Vrin, 6 édition augmentée, (1994), (p. 336).

المفهوم، مع أن هناك استثناءً تصنعه الرياضيات، وقد أشار إلى ذلك إيمانويل كانط (Immanuel Kant, ١٨٠٤-١٧٢٤) في حديثه عن المفاهيم الرياضية، أين اعتبر بأنه بالإمكان معرفة المثلث انطلاقاً من مفهومه المستقل عن التجربة؛ لأننا نستطيع أن نعطي ذلك المفهوم قبلياً موضوعاً تصورياً، أي ننشئه، ولما كان الإنشاء ليس إلا مجرد صورة لموضوع، فإن المثلث لن يكون من إنتاج الخيال ويبقى إمكان الموضوع إمكاناً مشكوكاً فيه، وهذا لأن الرياضيات لا تستطيع فيها أن نكتسب معارف قبلية، ولكن نحصل على صور تلك الموضوعات فحسب^(٤)، أما باقي المفاهيم العلمية ومن بينها المفاهيم الطبية فهي تحتاج إلى تجسيد واقعي لكي تحقق المصادقية، ومتى كانت هذه المفاهيم أكثر مصادقية كان الطب أكثر نجاحاً.

لهذا لم يُخَفِ كانغيلام رغبته في تغيير النظريات الفلسفية التي تتعرض للمفاهيم الطبية، بما أن هذا الحقل هو مدخل للتعامل مع الحياة، حيث يقول: «إنَّ الرغبة أو الطموح في الإسهام بتجديد

الذي يحفر في نشأة المفاهيم قصد تمييزها عن باقي المفاهيم المتداخلة معها، أين يمكن أن يتشكل لدينا تدرج انتسابي للمفاهيم، فنبتعد في مباشرتنا للمفهوم عن السياق اللفظي الذي احتواه أو السياق النظري الذي يرجع إليه؛ لأن لكل مفهوم انتساباً «بما أنه لا يمكن لأي كائن أن يوجد إلا من كائن آخر، كما لا يمكن أن يقال أي شيء عن أي شيء»^(٢).

إن المفهوم تحمله الكلمة، ولو أن الكلمة ليست أمينة دائماً على المفهوم؛ «لأن تكرار الكلمة لا يعني تكرار المفهوم، لذلك يجب إعادة التركيب الذي يكون المفهوم متضمناً فيه، أين يكون في نفس السياق المفاهيمي للتجارب والملاحظات المدونة، وعندئذ يكون التاريخ هو فعلاً تاريخاً للعلوم»^(٣)؛ لذلك فالمفهوم يصنعه السياق الذي يشتغل فيه وليس المصطلح الذي أنشئ من أجله، خاصة في المجال الدقيق الذي اشتغل عليه كانغيلام وهو مجال إبستيمولوجيا علوم الحياة؛ لأن استقلالية المفهوم عن معطيات التجربة يبعث على الشك في مدى صدقية

(2) bid, (p.336).

(3) Canguilhem, Plante, Traité de logique et de morale, Marseille, F. Robert et Fils, (1939), (p. 15).

(٤) مادي بن جاء بالله، العلم في الفلسفة، تونس، طبعة الجيب سراس للنشر، (١٩٩٩م)، (ص / ١٦٩).

الإرجاع من طرف الأرسطية هي من الصعوبات التي اعترضتها؛ لأنها تتعلق بالمنزلة الأنطولوجية والمعرفية للفرد، في إطار معرفة الحياة بالاستناد إلى قاعدة مفهومية؛ لأنَّ الفرد في الأساس هو حقيقة أنطولوجية⁽⁷⁾؛ لذلك لا يعطي له المفهوم سببًا كافيًا لوجوده، رغم أن التصورات التي يملكها هذا الكائن ستحتكم إلى اشتغال المفهوم في حد ذاته.

هنا تدخل علاقة الكلي بالجزئي على الخط كنمط نتقل به من المجال النظري إلى المجال الأنطولوجي؛ لأنَّ الفرد يصنع الأفكار عن طريق المفهوم، وعن طريق الأفراد يمكن معرفة الحياة باستعمال المفهوم، فإمّا أن يكون الكلي هو الذي يصنع الحياة من الفردي حيًا وهذا الحي بالذات، وتكون الفرادة في علاقتها بالحياة ما يكون الاستثناء بالنسبة إلى القاعدة بل إنها تؤكدها، يعنى أنها تكشف ما فيها من حق وواقع، بما أن الفرادة تظهر عن طريق القاعدة وضدها؛ لأنَّ المفهوم هنا يتشظى أمام الفرادة لتتقاسمه كل أفراد النوع، وإمّا أن يكون هذا الفرد هو الذي يعطي للكلي بعده التجسيدي، في اللون

المفاهيم الميتودولوجية، يسهم في تغيير فهم علاقتنا بالطب⁽⁵⁾، فالعمل الذي قام به في مجال البحث عن طبيعة المفهوم كان صريحًا؛ لأنَّ تاريخ الإستيمولوجيا عند كانغيلام بني على هذا الأساس، ونستطيع أن نقول بأن هذه الإستيمولوجيا مجال لمحاكمة المفهوم، ولكي نتبع الخطوات التي اتخذتها لمتابعة المفهوم، دعونا نستحضر تلك الأسئلة التي طرحها كانغيلام، وهي أسئلة تريد أن تبعث في المفهوم الحياة، وفيها يقول كانغيلام: «هل يستطيع المفهوم أن يمنحنا القدرة على الولوج إلى الحياة؟ كما أن هذا يقودنا إلى طرح تساؤل آخر وهو: هل معرفة الحياة تتم من العقل إلى الحياة أم من الحياة إلى العقل؟ وإذا كان المفهوم هو الحياة ذاتها، فهل هو كافي لمعرفة معنى العقل؟»⁽⁶⁾.

يعود كانغيلام بهذه المشكلة إلى أرسطو، الذي اهتم بالمعرفة والوجود والعقل والحياة، ولو أن كل تلك الأنشطة تعود إلى الحياة ذاتها، وعدم إحداث هذا

(5) Canguilhem, Le normale et le pathologique, Paris, Librairie Philosophique j.vrin, (1977), (p. 08).

(6) Canguilhem, Etudes d'histoire et de philosophie des sciences, op-cit, (p. 335).

(7) bid, (p.339).

كانغيلام، خاصة تلك التي تشتغل على مفاهيم الحياة؛ لأنَّ جلّ الفلسفات تهتم بمسألة المعرفة في الحياة، ومختلف العمليات الذهنية في عملية المعرفة؛ إلاَّ أنَّها تقح جميعًا في سهو خطير وهو نسيان معنى أن نعرف⁽¹⁰⁾.

بذلك يكون الممارس لفعل الحياة هو الذي يعبر عن المفهوم بمعناه الكلي، وهذا الحكم يسحبه كانغيلام على كل أشكال الحياة ومظاهرها.



يرى كانغيلام أن أي محاولة لضبط علاقة المفهوم بالحياة هي بمثابة طرح مشكلة للنقاش؛ لأنَّ اتجاه ضبط هذا المفهوم وعملية الفكر يتحددان من خلال هذه العلاقة، وهذا قلَّمًا يحدث في العلم، وهو نفس المنحى الذي تسلكه الكثير من النظريات سواء في اتجاه تجريبها أو في اتجاهها نحو التطبيق؛ لأنَّ المفهوم ليس مصطلحًا جاهزًا للاستعمال متى استدعيناها، كانت أجزاءه قد اكتملت وأصبح ناضجًا ليُستعمل؛ لأنَّ عناصره ليست معطاة

والثقل، واللحم ... فلا تبقى الكلية من هذا مجرد كلام عن الحياة⁽⁸⁾.

بذلك يكون الممارس لفعل الحياة هو الذي يعبر عن المفهوم بمعناه الكلي، وهذا الحكم يسحبه كانغيلام على كل أشكال الحياة ومظاهرها، فالمرض كشكل من أشكال الحياة يتصف بالكلية، لكن عندما نأتي إلى الواقع لا نجد المرض وإمَّا نجد المرضى، في حين أن الطب يتعامل مع المرض كمفهوم والمرضى هو تجسيد لذلك الكلي في الحياة؛ لذلك لا يكمن الإشكال في الموضوع الذي نبحت فيه، وإمَّا في المفهوم الذي يدل على، وهذه المشكلة التي تريد الفلسفة الكانغيلامية تبينها.

قد يكون غيوم لوبلان (G.Le Blanc) قد عبر عن هذه الفكرة بشكل جيد حينما قال: «إذا كانت العلوم ترى بأن المفاهيم واضحة، فإن مسعى الفلسفة ينصب على فهم طبيعة هذه المفاهيم، والتي تكون بالنسبة لها إشكاليات بحثية»⁽⁹⁾، لكن ليست كل الفلسفات بإمكانها امتلاك محددات المفهوم حسب

(8) bid, (p. 340).

(10) Canguilhem, La connaissance de la vie, Paris, Librairie Philosophique j.Vrin, (1965), (p. 09).

(9) Le Blanc, G. Canguilhem et les normes, Paris, P.U.F, 1er édition, (1998), (p. 14).

على أنه مجرد كلمة مجهزة بتعريف معين له ما يقابله في البحث التطبيقي. لكن هذه الخطوة قد تجعلنا نسيجه في مجال محدد، قد نقضي من خلالها على الكثير من الخصائص التي تميزه، رغم أن التعريف تبقى له قيمته التمييزية، ولكن ليست له سلطة تحديدية على المفهوم، ليصبه في نموذج مغلق، وهذا ينسحب على كل المفاهيم التي تشغل عليها الإبيستيمولوجيا الكانغليامية، بما فيها تلك التي لها علاقة بمجال الحياة⁽¹²⁾.

يعطينا في هذا السياق كانغيلام مثال «السوي والمرضي» Le normale et le pathologique الذي يحيلنا إلى عملية الاستشفاء rétablissement والثبات الفيزيولوجي في العضوية، وفي هذه الحالة فإن مفهوم العادي lenormal لا يبدو في كثير من الحالات إعادة تأهيل وظيفي، لكن عندما نريد في مجال الفلسفة أن نحقق توافقاً للمفهوم، فإن ذلك يجب أن يتم خارج العمليات والتطبيقات العلمية الظرفية التي ربما تشوه هذا

بصفة مطلقة، فالمفاهيم تنشأ من خلال عملية جدلية بين مشروطيتها الواقعية، وطبيعة النظريات التي تبحث فيها، ولا يمكن أن تستأثر أي نظرية بصناعة المفهوم ما لم تثبت أحقيتها بذلك؛ لذلك: فإن مفهوم الحياة لكي يُضبط ضبطاً دقيقاً، يجب إخراجه من السياق النظري القبلي الذي يوجه محدداته، سواء من الاتجاه الآلي أو من الاتجاه الغائي؛ لأنَّ مشكلة الحياة لا يمكن فهمها بمجرد حل مشكلة الأصل التي تعترضنا في كل مرة، بل يجب أن نتساءل عن نوعية الأضواء المعرفية والنظرية، التي نستطيع تسليطها على الحياة أثناء اشتغالها كمعطى للعلم، ويجب على هذه الرؤيا أن تملك من الوضوح لتبين لنا جهل وعمى بقية الرؤى الأخرى⁽¹¹⁾.

كما يجب ألا يُحصر المفهوم في نتائج تجريبية، أقيمت في مجال بحث مخبري ما؛ لأنَّ المصادقة المخبرية -على نجاح التجربة- لا تعطي لها أحقية امتلاك المفهوم، فهذه الخطوة تدخل ضمن عملية البحث عن تعريف للمفهوم، وفق منطلق بأن المفهوم أول ما يتقدم

(12) Penission, Le vivant et l'épistémologie des concepts, Essai sur le normal et le pathologique de G. Canguilhem, Paris, L'Harmattan, 1er édition, (2008), (p. 36).

(11) bid, (p. 11).

إنَّ هذه العملية المتجددة باستمرار، أهلت العلوم إلى أن تتميز تدريجيًا بمفاهيمها الخاصة، التي انفصلت بها عن فكر شمولي كان سهل عليه استيعابها بمجرد إعارتها لمفاهيم كلية، فالعلم استقل عن الفلسفة بإبداعه لمفاهيمه الخاصة ولم يكن هذا الانفصال بمجرد أنه اختار موضوعًا ما يبحث فيه، بل هي عملية ابتكارية لمجموعة من المفاهيم شكلت نسقه الذي خلق به الخصوصية، والملاحقة التي يمارسها ذلك الفكر الشمولي تبدو وكأنها رهان فكري محض، في حين أن العملية تحمل رهانًا أيديولوجيًا؛ لذلك جاءت مهمة تاريخ العلوم لتكشف عن الملامح الحقيقية للفكر الذي يرى استمراريةً في تقدم العلوم، كون أن هذا الشكل التواصلي هو الذي يقود إلى الحقيقة، وبحكم التواصل الواقعي للأحداث يجب أن يكون هناك تواصل مفاهيمي يتناسق فيه ما هو واقعي مع ما هو نظري، وكل تقدم زمني (*avancée chronologique*) يمثل تجسيدًا نحو تطبيق هذا المنحى؛ لذلك فإن كانغيلام لا يوافق على هذا النوع من التاريخ، الذي يحصر العلوم في مثل هذا النوع من الممارسات، بل بالعكس فإن تاريخ العلوم عنده يتطور من

المفهوم⁽¹³⁾؛ لذلك يجب معالجة المفهوم في معزل عن تأثيرات الأحكام المتسعة والحينية، التي يجب الحذر منها عندما نحاول نقله لينبت في بيئة غير بيئته الأصلية؛ لأنَّ الكلمة ليست هي المفهوم، بل هي مختلفة عنه، فالمفهوم شيء آخر تمامًا غير الكلمة، وحضور الكلمة في نصٍّ معين لا يعني حضور المفهوم، ونحن عندما ننظر إليها في لحظة لاحقة على تكوّن المفهوم واشتغاله العلمي الفعلي، لا يعني بأن هذا المفهوم يوجد ويشغل في ذلك النصّ⁽¹⁴⁾.

لذلك يوكل كانغيلام عملية صيانة المفهوم إلى الإستيمولوجي، الذي تدخل ضمن مهامه التّنظيرية، هذه المهمة التي تضع حدًا لنزعة الفكر إلى الشمولية، وهو حينئذٍ تنجذب إليه الاتجاهات الوضعية، التي ترغب في بقاء الفكر في حالة اللا تميز المعرفي، ذلك أن خطوط التمييز لم تبدأ في الظهور إلا حينما بلغت العلوم من القوة والنضج، خرجت من خلالها عن عباءة طالما حجبت عنها رؤيتها الواضحة لموضوع بحثها.

(13) bid, (p. 37).

(14) حمد هشام، في مفهوم تاريخ اختلافي للتفكير البيولوجي عند جورج كانغيلام، المغرب، أفريقيا الشرق، (ط. ١)، (٢٠٠٧م)، (ص/٤٧).

مفاهيم في حقل آخر تحمل دلالات كمية، وتصبح قابلة لتصنيف الحالات العادية وغير العادية وَفَق مُوَدَج يخالِف طبيعة الحياة.

بذلك يكون الممارس لفعل الحياة هو الذي يعبر عن المفهوم بمعناه الكلي، وهذا الحكم يسحبه كانغيلام على كل أشكال الحياة ومظاهرها.

هذا ما فعله مثلاً في علم الاجتماع أوغست كونت (Auguste Comte)، (١٧٩٨-١٨٥٧م) في نظر كانغيلام عندما أخذ مبدأ بروسيه (le principe deBroussais)، من ميدان البيولوجيا إلى ميدان السوسيوولوجيا، هذا المبدأ الذي يسمح برد الظواهر المرضية إلى القوانين الفيزيولوجية^(١٧)، رغم ما تحمله هذه العملية من مخاطرة، ومن بينها فك تلك العلاقة القائمة بين الاسم (le mot)، والمعنى (le concept)، أين يمكن للاسم أن يفقد معناه أو يأخذ عدة معانٍ التصقت به نتيجة عملية الدمج أو النقل.

خلال تحديد مجال اختصاصه، والأولى عنده تسميته تاريخ العلم وليس تاريخاً للعلوم^(١٥).

إنَّ تاريخ العلم الذي يغذي بمفاهيمه كل إستيمولوجيا محلية، لا يهدف من ورائها الإستيمولوجي توجيه الماضي نحو الحاضر أو الحاضر نحو المستقبل، ولكنّه يريد من خلال استرجاعه للمفهوم العمل على إعادة النَّظَر (reconsidérer) في الحكم الذي حمله، من خلال التفكير في المشكلات داخل مختلف القرارات التي صدرت حوله^(١٦)، ليتسنى له محاكمة هذه المفاهيم؛ لأنَّ القاضي لا يهتم بالتأريخ للجريمة بقدر ما يهتمه صواب الحكم الذي يتخذه.

كما أنَّ من مهام الإستيمولوجي العمل على تجنب المفهوم ذلك النقل العنيف الممارس عليه من بعض العلوم، خاصة عندما ينقل من مجال استعماله الأصلي إلى مجال آخر بعيد عنه على سبيل الإعارة، وقد تمر المفاهيم في هذه الحالة من صورتها النوعية لتصبح

(15) Penission, Le vivant et l'épistémologie des concepts, Essai sur le normal et le pathologique de G. Canguilhem, op-cit, (p. 40).

(16) bid, (p. 40).

(١٧) جورج كانغيلام، دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، ترجمة محمد بن ساسي، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، (٢٠٠٧)، (ص / ١١٩).

على العلم عن طريق المفهوم، وتوجهه لاستعمال مفاهيم دون أخرى؛ لذلك علينا أن نميز بين البدايات والأصول في استعمال المفهوم، فعندما يكف اهتمامنا بالبدايات حسب كانغيلام؛ فإننا نكتشف الأصول، فالأصل هو ما يخص منذ البداية ويفرده عند نشأته في استقلال تام عن البداية، أما البداية فهو إعطاء المفهوم وظيفة داخل العلم ليشغلها، فالبداية التي عرف فيها علم النفس مجالاً اللاوعي كان ذلك مع سيغموند فرويد، لكن أصوله تعود إلى لوك ولايبنتز، بهذا المعنى فإن إدراك البداية والأصل شيء مختلف تمامًا، فنحن ننتقل من البداية ولكن نعود إلى الأصل، وتاريخ العلوم لا يحفر كثيراً في الأصول بقدر ما يهتم بالبدايات^(١٨)؛ لأنَّ النباش في الأصول يجعل البحث يصطدم بكثير من الأيديولوجيات التي تدعي بأن المفهوم يرجع إلى أصولها طالما ليست هناك وسيلة للتحقق، وهذا ما يمكن أن نلاحظه في الكثير من المفاهيم التي تستعملها علوم الحياة، ولو أن البداية التاريخية تهم أكثر من الأصل التفكيري^(١٩)، لكن هذا لا

كما أن هناك مفهومًا آخر تعرض لنفس العملية وهو مفهوم الوسط (le milieu) في البيولوجيا، الذي لم يسلم من هذه الممارسة، ذلك أنه لم يستعمل في إطاره المحدد، لأن هذا المفهوم يمكن أن يحيلنا إلى الهندسة (Géométrie)، لكن نحن نقصد به في المستوى الأول الفضاء الذي تعيش فيه العضوية، ومن خلاله تجد شروط استمرارية حياتها، بينما نقصد به في المستوى الثاني المجال الذي تتحرك فيه الأجسام، حيث يمكن تعيين نقطة في معلم محدد وفق أبعاد معينة، وهذا يساعدنا في ضبط حركتها وسرعتها ومدى قابليتها للخضوع للقوى المؤثرة فيها... هذا الاختلاف راجع لاختلاف مجال الخطاب الذي يستعمل فيه المفهوم، وتداخل هذه الخطابات تطرح مشكلة امتلاك المفهوم، فمن له أحقية امتلاك المفهوم؟ وهل هو ملكية مشتركة تستعيره كل الخطابات وفق سياقها الذي تبني عليه أحكامها، أم على كل علم امتلاك مفاهيمه الخاصة؟

يرى كانغيلام أن عملية البحث في مشكلة ملكية المفاهيم عملية صعبة ومرهقة، تجعلنا ندخل في حقول الأيديولوجيا، التي تسيطر في بعض الأحيان

(١٨) حمد هشام، في مفهوم تاريخ اختلافي للتفكير البيولوجي عند جورج كانغيلام، مرجع سابق، (ص ٤٩، ٥٠).

(19) Canguilhem, Le normale et le pathologique, op-cit, (p. 30).

بذلك يكون عمر هذه العلاقة قديم قدم التفكير في الحياة، وقدم كذلك التفكير في اللغة كحاملة للمفاهيم، فإذا كانت الكائنات الحية من صفاتها التوالد وفق التصنيف الأرسطي، فإن ذلك يمثل الانعكاس البنيوي الذي يمارسه السلوك بالمعنى الأخلاقي للمصطلح، بما يظهر التشابك بين الحياة والمفاهيم التي تنتجها المعرفة، فالمعرفة لا تطرح نفسها وفق هذا المنظور كنظير للحياة أو نداءً لها، بما أن كلاهما في تقدير كانغيلام مسلكية إنسانية⁽²¹⁾، فهي تطرح نفسها كمرافق لهذه الحياة، عن طريق مختلف المفاهيم التي تنتجها، لتعبر بها عن طبيعة الحياة ومساراتها المختلفة، وتبسيط طبيعة تكوينها، وكل خطوة تقوم بها المعرفة للاقتراب من حقيقة الحياة تكون عن طريق إعادة صياغة جهازها المفاهيمي بما يتلاءم وخصوصياتها، «وكل مرحلة من مراحل هذا التطور، هي مرحلة من مراحل تشكل بذرة الحقيقة، أو عنصر للنظرية قابل للتقدير فقط انطلاقاً من معايير النظرية اللاحقة، والرفض هنا ينصب على إعادة تشكيل مقدمات خيالية، من أجل ألا نرى فيما

يعنى رفع الفائدة عن الأصول، بما أنها توقعنا في الأيديولوجيا، إمّا الرجوع إليها يكون بتحفظ بعيداً عن إصدار الأحكام؛ لأنّ الحكم لا يصدر إلا في القضايا اليقينية، وإعادة هذه الأصول يفيد في فهم أوضح للمفهوم، ويرفع عليه الكثير من الالتباس الذي قد يصاحبه في البداية.

إنّ هذه العملية تعاني منها جميع العلوم، فهي ليست حكراً على مفاهيم علوم الحياة فقط، لكن على الإبستمولوجيا العمل على تخليص المفهوم من سيطرة الأيديولوجيا خاصّة في هذا المجال، فيجب عدم تقديم أي تسهيلات لنفاذ الأيديولوجيا في العلم؛ لأنّ ذلك سيضعنا أمام انزلاق خطير، أين يذوب الإبستمولوجي في الأيديولوجي، وقد يمتد هذا الخطر إلى القيم الأخلاقية التي تحكم مبادئ الحياة؛ لأنّ الحياة ليست مجرد مفهوم إبستمولوجي فقط، بل هي ميزة من مميزات الكائنات الحية، التي تحيط الحياة بهالة من القداسة، وتعطيها الأولوية على المستوى الإبستمولوجي والأنطولوجي وكذلك على المستوى السياسي والجمالي⁽²⁰⁾.

(21) bid, (p. 10).

(20) Canguilhem, La connaissance de la vie, op-cit, (p. 11).

هذين المصطلحين في العلوم الطبية بنفس المشار جعلنا نعتبرهما مفهومًا واحدًا، لكن الحياة تفرق بين المفهومين، فالشاذ يمكن أن لا يكون منسجمًا أو متوافقًا (Incompatible) مع الحياة، أين يعامل الشاذ في الأوساط الطبيعية كذات مريضة، لكن الشذوذ أو الطفرة (mutations) لا يمكن وضعها في خانة المرض، بل هو حالة طبيعية، ولكن بشكل مغاير للحالة العادية، وإمّا هذا الخلط ناتج عن الاستخدام المشوه بين المصطلحين وهذا ما جعلهما متشابهين⁽²³⁾، لكن في المقابل لو استعملنا المصطلحين لوصف ظواهر في الفيزياء فإن ذلك لا يحقق اختلافًا في المعنى، لأن الظواهر غير العادية هي تلك الظواهر الشاذة، التي تخرج عن القوانين الطبيعية المعتادة، والتي تخضع لها أغلب الظواهر المشابهة.

إن ردة الفعل الانتقادية عند كانغيلام، جاءت نتيجة استعارة المعنى وليس نتيجة استعارة المصطلح، خاصة في المجالات التي تتعامل مع الحياة كالطب والبيولوجيا، فالاستخدام الطبي اليوم جرد المصطلحات من حمولتها اللغوية الحرفية، وأصبحت

يدشن هذا التاريخ، غير خصوبة موقف أو بلورة مشكل، وإذا كان المفهوم يوجد في مجال الأسئلة، فإن النظرية تكون في مجال الأجوبة؛ ولذلك فالانطلاق من المفهوم بالأساس اختيار الانطلاق من الأسئلة لكتابة التاريخ»⁽²³⁾.

لكن نتيجة هذا التاريخ الحافل باستخدام ترسانة من المفاهيم في وصف طبيعة الحياة، قد يسمح بتسلل من بين هذه المفاهيم مفاهيم متداخلة الوظيفة، فليست كل المفاهيم تبذل نفس الجهد لإيصال المعنى، فهناك مفاهيم أمينة ومفاهيم أخرى طفيلية، ويعطينا كانغيلام مثالاً عن الاستعمال غير المراقب في الطب لهذه المفاهيم، مفهوم الشاذ ومفهوم غير العادي، كمفاهيم دخلت في حقل الحياة نتيجة الاستعمال غير المراقب من طرف الإيستيمولوجيين، لقد تداخل مفهوم الشاذ (anomalie) ومفهوم غير العادي (anormal) في الاستعمال، لكن لو بحثنا في أصلهما الإتمولوجي (étymologiquement) لوجدنا بأن الأول له معنى وصفي (sens descriptive) أما الثاني فله معنى معياري (normative)، لكن استعمال

(22) حمد هشام، في مفهوم تاريخ اختلافي للتفكير البيولوجي عند جورج كانغيلام، مرجع سابق، (ص/ 51).

(23) Canguilhem, Le normale et le pathologique, op-cit, (p. 91).

باستغلال تقنيات تاريخ العلوم، جعلت من المفهوم الحجر الأساس في بناء صرح إبستيمولوجيا علوم الحياة لديه، من حيث أن هذه السيورة هي بالذات ما يشكل التاريخ الإبستيمولوجي للعلوم كتاريخ للمفاهيم العلمية، ويعتبر كتاب «تكوين مفهوم المنعكس» من الأمثلة التطبيقية لهذه الطريقة.

(٢) مفهوم المنعكس

(le Réflexe) وشرعية الانتساب:

لقد باشر كانغيلام منهجه في إبستيمولوجيا المفهوم (épistémologie du concept) من خلال العمل الذي قدمه سنة (١٩٥٥م)، لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة بعد انتهائه من دراسة الطب، وكانت هذه الأطروحة بعنوان تكوين مفهوم المنعكس خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر (La Formation du Concept de Réflexe aux 17ème et 18ème siècles)، الذي لم يكن فيه كانغيلام مهادناً لأي نظرية قدمت تاريخاً لمفهوم المنعكس بقدر ولائه للموضوعية والاحتكام إلى النص التاريخي، وقد كان غرضه من خلال اختياره لهذا المفهوم والتأريخ له، تمحيص تلك النظريات التي كانت تعتبر بأن المفاهيم لا يمكن لها أن تظهر إلا في نظريات محكمة البناء، ولا وجود لمفاهيم

هناك مصطلحات رمزية، لكن المعنى إذا نقل يوقع المفهوم في مأزق فيسء استخدامه؛ ولذا تعمل إبستيمولوجيا المفاهيم (l'épistémologie du concept) على مرافقة العمل العلمي، وهو عمل دائم ودقيق مرتبط بالميتودولوجيا المجردة (méthodologie abstraite) من أجل القبض على المفهوم وضبط الفعل الذي يشير إليه⁽²⁴⁾.

عندما تقوم الإبستيمولوجيا بهذه المهمة فإنها -عند كانغيلام- تسمح بتأطير بعض المشكلات المرتبطة بالتحكم في المفهوم العلمي، الذي له علاقة بالكائن الحي، كما سيسمح لها بوضع علامات تبين لنا مراحل بناء تاريخ علم الأحياء، وهذا قد يزيد من ترسيم الحدود، ويصبح التفاوت بين العلوم ليس تفاوتاً عرضياً، بحكم أن امتلاك مفاهيم نوعية لكل علم، وتلهى بالعناية بها وتطويرها؛ لأنّ التمسك بالمفاهيم العامة كأساسيات تُشكّل في الحقيقة عائقاً يحول دون الممارسة الإبستيمولوجية المعمقة.

تلك العملية الدقيقة التي رسمها كانغيلام من أجل تتبع طبيعة المفهوم

(24) Penission, Le vivant et l'épistémologie des concepts, Essai sur le normal et le pathologique de G. Canguilhem, op-cit, (p. 39).

بأنه لم يتحدث كذلك عن هذا النوع من المفاهيم رغم إشارات جالينوس المتكررة لهذا الفعل، الذي بدا له بأنه وسيلة منحتها الطبيعة للكائن الحي، من أجل تلافي الخطر بسرعة أكبر، وهذا فيه تأثير كبير هيمتافيزيقا أفلاطون⁽²⁶⁾؛ لذلك بقي وصفه لهذا الفعل بعيداً عن التفسير العلمي، فلا يمكن أن تعود إليه بلورة مفهوم المنعكس.

لكن كانغيلام لم يرجع فقط إلى القرن السابع عشر من أجل البحث في طبيعة المفهوم، بل رجع قبل هذه المرحلة بكثير مفضلاً مهنة المنجمي بدل مهنة متسلق الجبال، حيث عاد إلى أرسطو باعتباره أول من تكلم عن حركة القلب واصفاً إياها بالحركة اللا-إرادية؛ لأنها من ضمن الحركات التي لا يتحكم فيها الإنسان وذكر معها التنفس والهضم، فهو الذي يتحكم في كل الحركات التي تقوم بها العضلات، بما أنه يضم حرارة ذلك الحيوان⁽²⁵⁾، لكن أرسطو حسب كانغيلام، لم يكن لديه تصور واضح لمفهوم المنعكس، رغم إشارته لبعض الحركات اللا-إرادية.



لتأني المرحلة الحاسمة في نظر كانغيلام وهي المرحلة الديكارتية، التي عرف فيها الاتجاه الآلي سيطرة تامة على كل التفسيرات التي تخص حركة الكائن الحي، بما في ذلك حركة المنعكس التي اعتبر الكثير من المؤرخين بأن الفضل

خارج السياق النظري الذي يسكنها مكانة داخل نسقها العام، وهنا في حالة مفهوم المنعكس طالما ربطه المؤرخون بالنظرية الآلية التي سيطرت على البيولوجيا خاصة بداية من القرن السابع عشر، واعتبروها هي النظرية الحاضرة لهذا المفهوم.

لكن كانغيلام لم يرجع فقط إلى القرن السابع عشر من أجل البحث في طبيعة المفهوم، بل رجع قبل هذه المرحلة بكثير مفضلاً مهنة المنجمي بدل مهنة متسلق الجبال، حيث عاد إلى أرسطو باعتباره أول من تكلم عن حركة القلب واصفاً إياها بالحركة اللا-إرادية؛ لأنها من ضمن الحركات التي لا يتحكم فيها الإنسان وذكر معها التنفس والهضم، فهو الذي يتحكم في كل الحركات التي تقوم بها العضلات، بما أنه يضم حرارة ذلك الحيوان⁽²⁵⁾، لكن أرسطو حسب كانغيلام، لم يكن لديه تصور واضح لمفهوم المنعكس، رغم إشارته لبعض الحركات اللا-إرادية.

بعدها سافر كانغيلام مع المفهوم إلى نظرية جالينوس (Galien)، (١٣١-٢٠٠ ق.م) في الحركة ووصف الأعضاء، التي رأى

(25) Canguilhem, La Formation du Concept de Réflexe aux 17ème et 18ème siècle, Paris, Librairie Philosophique j.Vrin, (1977), (p. 11).

(26) bid, (p. 13).

الديكارتية، التي نطلب فيها الحقيقة بحذر أكثر من المجد الديكارتية ذاته، تبين لنا تلك النبالة التي تعطيها النظرية الآلية لديكارت والتي تريد أن تزدهي بها»⁽²⁹⁾، فليس هناك ما يوحي حسب كانغيلام بأن المفهوم منسوب إلى ديكارت بطريقة موضوعية، والذين يؤكدون انتماءه لهذا النص؛ فإنهم يعودون إلى استعمال ديكارت لهذا المصطلح في وصفه للحركة، ومن بينهم الفيزيولوجي الألماني إميل دوبواريمون (E.B.Raymond)، (١٨١٨م-١٨٩٦م) الذي رأى في عبارة (esprits réfléchis)، والتي استعملها ديكارت في كتابه (traité des passions)، وبالتحديد في المقالة (٣٦)، بأنها دليل على وجود المفهوم لدى ديكارت⁽³⁰⁾.

رغم أن كانغيلام لا ينكر أن ديكارت ذكر المنعكس (le reflexe) كمصطلح، خاصة في كتابه «معالجة في الإنسان»، (traité de l'homme)، لكن استعماله لدى ديكارت جاء بصيغة «الصفة» وليس بصفة «الثَّغْت»، أي إن النص الذي ذكر فيه المنعكس لم يكن هو المقصود، بل

يعود إليها في توضيح طبيعة المنعكس؛ «لأن النظريات ذات الطابع الآلي هي وحدها القادرة على قيادة الاكتشافات الخصبة والإيجابية»⁽²⁷⁾؛ لهذا عمل كانغيلام على نقض هذا التصور، بما أنه يرد كل الحركات التي يقوم بها الكائن الحي إلى الآلية، بما فيها المنعكس بما أنه مفهوم في عمومته يعبر عن فعل آلي تقوم به العضوية، وهذا ما يجعلنا نقول بأنه ظهر في سياق النظرية الآلية، التي يقر أصحابها بهذا، ناسبين السبق في هذا الاستعمال إلى ديكارت، الذي أدخل المفهوم في وصفه للحيوان الآلة؛ «لذلك فإن الكثير من الفلاسفة والبيولوجيين اعتبروا أن نظرية ديكارت في المنعكس ونظريته الآلية شيئا لا ينفصلان»⁽²⁸⁾.

لكن عندما عاد كانغيلام إلى التراث الديكارتية، الذي يزعم مناصروه بأنه هو من بلور المفهوم، كشف الكثير من نقاط الظل في هذا الموقف، والميل غير المبرر لإبراز مفاهيم لم تكن لصاحبها نية الاشتغال عليها، حيث يقول: «إن القراءة الصارمة والدقيقة للتراث البيولوجي

(29) bid, (p. 05).

(30) bid, (p. 42).

(27) bid, (p. 03).

(28) bid, (p. 53).

ليست مسؤولة عن الحركة لأنها لا تتدخل في أي عمل بيولوجي؛ لأنَّ الحركة تتم بطريقة آلية، وانطلاقاً من مفهوم الآلية فسر ديكارت ما يحدث في الكائن الحي من حركة وما يطرأ عليه من تغير، سواء كان بإرادتنا أو بغير إرادتنا، كثنني الساق عند تعرضها للوخز، وإغلاق الأجنان لحماية العين ... كلها ينطبق عليها الوصف الديكارتى، لكن كانغيلام يعتبر بأن هذا ليس تحديداً للمفهوم، بقدر ما هو مجرد وصف واقعي لما هو عليه المفهوم، بذلك لا يعطي لصاحبه السبق في استعمال المفهوم.

إنَّ السبب الذي جعل ديكارت يفشل في تحديد مفهوم المنعكس، هو تشبثه المفرد بالتفسير الميكانيكي لحركة العضوية، واعتبار حرارة القلب هي المصدر الوحيد للحركة من خلال التمدد وتبخر الدم في التجويف الأيمن للقلب، والحركة الدائمة للنفس هي نفسها حركة الدم، لذلك يقابل ديكارت بين القلب والشرايين وجهاز التنفس، فالأنفيس تمر عبر الدماغ لتتوزع بعد ذلك مع الشرايين، لكن العمل الأساسي يقوم به القلب

من أجل التعبير عن فكرة الحركة التي تحدث دون إرادة، أما أنه أعطاه التفسير الفيزيولوجي فهذا الذي لم يحمله النص الديكارتى، مع أن هذا الاستعمال بقي يمارس حضوره لدى فلاسفة وفيزيولوجيي القرن السابع عشر⁽³¹⁾.

لقد عمل كانغيلام على تحليل الأسباب الممكنة التي جعلت أغلب الفلاسفة والبيولوجيين يرجعون المفهوم إلى ديكارت، لذلك عمل على العودة إلى الإطار العام الذي فرضت فيه هذه الفيزيولوجيا نفسها، ولعل كانغيلام رأى الطريق الأقرب لتحقيق هذه الغاية هو تحليل المفهوم الذي أعطته الديكارتية للحركة اللا إرادية، متسائلاً هل حديث ديكارت عن هذا النوع من الحركة فيه علاقة مع مفهوم المنعكس؟ وهل يمكن أن تكون للديكارتية مساهمة في بناء المفهوم وتوضيحه؟

لقد كان ديكارت يقول كما كان يقول أرسطو بأن القلب هو مصدر الحرارة التي تحرك الجسم⁽³²⁾، والنفس

(31) bid, (p. 38).

(32) bid, (p. 52).

السابع عشر والثامن عشر كانت تستعمل كصفة وليست كمفهوم، ممّا يدل على أن ديكارت استعملها كمفهوم^(٣٦)؛ لذلك تهافت الأسطورة التي كانت تنسب مفهوم المنعكس إلى ديكارت، والتي كانت تغذيها توجهات أيديولوجية وهو تغليب الاتجاه الآلي في تطور البيولوجيا، فالدفاع عن ديكارت لا يستند إلى أي أساس علمي أو حقائق تاريخية، بقدر ما يهدف إلى تثمين موقف فلسفي أيديولوجي هو بالذات الموقف العلمي^(٣٧).

لكن الشيء الذي يدعو للأسف حسب كانغيلام، هو أن هذه الممارسة آتية من مؤرخين فلاسفة، وليست من علماء البيولوجيا؛ «لأنّه عندما يكون هؤلاء بيولوجيون، فإننا يمكن أن نتجاوز عنهم هذا الخطأ، لكن عندما يأتي هذا الخطأ من مؤرخين فلاسفة، فإن ذلك يدعونا إلى أن نأسف على ذلك كثيراً»⁽³⁸⁾، لذلك نفهم بأنه ليست الأسباب العلمية وحدها هي من توجه تاريخ العلم نحو اعتبار

باعتباره منبع كل حركة⁽³³⁾؛ لأنّ الوظيفة الفيزيولوجية للقلب تشابه تلك الوظيفة التي يقوم بها الفرن من أجل تحريك الآلة، وهذا التفسير يتوافق مع اتجاهه الآلي بشكل عام، وهنا يختلف ديكارت حسب كانغيلام مع هارفي (Harvey) الذي كان يعتبر بأن القلب مجرد عضلة كباقي العضلات⁽³⁴⁾.

هذا الاعتقاد جعل ديكارت بعيداً عن فهم طبيعة حركة العضوية، وما التحليل التقدمي الذي قدمه بعض المؤرخين لهذه الأفكار إلا نتاج للأسطورة التي اصطبغت بها الفلسفة الديكارتية، «وإذا كانت الأسطورة أكثر حقيقة من التاريخ، فإن علينا حينئذ التسليم بأن ديكارت هو من ابتكر مفهوم المنعكس»⁽³⁵⁾؛ لأنّه في نظر كانغيلام إذا تمكنا من التمييز بوضوح بين الظواهر والمفاهيم وبين الوصف؛ فإنّه لا بُدّ من أن نتبين بأننا لا نلتقي بلفظ ارتكاس في كتابات ديكارت، بل هو لا يشير إلى المفهوم قط، لأن المنعكس في القرن

(٣٦) حمد هشام، في مفهوم تاريخ اختلافي في فلسفة العلوم عند جورج كانغيلام، مرجع سابق، (ص / ٦٠).

(٣٧) المرجع السابق، (ص / ٧٣).

(38) bid, (p. 56).

(33) bid, (p. 31).

(34) bid, (p. 33).

(35) bid, (p. 36).

(T.Willis)، (١٦٢١م-١٦٧٥م)، حيث سيطر المفهوم الذي سبكه على معظم فيزيولوجيي القرن الثامن عشر، فرغم الممارسات التجريبية والنظرية التي كان يمارسها الفيزيولوجيون والتي عنها نشأ المفهوم، لم يكن ليكشف عن نفسه إلا على يد ويلس، فمن خلال حديث كانغيلام عنه نفهم بأنه هو من ولد معه مفهوم المنعكس بمعناه المنطقي ليتم تنقيحه فيما بعد تجريبياً⁽⁴⁰⁾.

لقد كان للتاريخ الجدلي الأثر الواضح في تكوّن هذا المفهوم، لذلك لا يمكننا أن نؤرخ لنشأة المفهوم بمجرد ذكر مصنف يشير إليه أو شخص قاربت تجاربه طريقة اشتغاله، وإنما يجب أن يكون النص المحتفى به كأول نص أتى بالمفهوم من خلال التسمية والتجربة، فإذا كان مفهوم المنعكس يعني تلك «الحركة التي يحددها النَّخاع الشوكي بما أنه هو مركز، ولكنّها الحركة اللا إرادية المتولدة من انطباع حسيّ سابق لم يشعر به بما هو كذلك»⁽⁴¹⁾، فإن هذا

ديكارت كفيزيولوجي كبير، وإنما هناك فلسفة تغذيها أيديولوجيا تختفي معها الموضوعية في هذا الخطاب التاريخي، والمسكوت عنه هنا هو الصراعات السياسية الأيديولوجية التي لا تلعب فيها المسائل الفيزيولوجية البحثية إلا دوراً هامشياً^(٣٩).

لكن الشيء الذي يدعو للأسف حسب كانغيلام، هو أن هذه الممارسة آتية من مؤرخين فلاسفة، وليس من علماء البيولوجيا؛ «لأنّه عندما يكون هؤلاء بيولوجيون، فإننا يمكن أن نتجاوز عنهم هذا الخطأ، لكن عندما يأتي هذا الخطأ من مؤرخين فلاسفة، فإن ذلك يدعونا إلى أن نأسف على ذلك كثيراً»

يستمر كانغيلام في رحلة البحث عن بداية تشكل المفهوم، بعيداً عن هذه الأيديولوجيا التي شوّهت الكثير من تاريخ العلوم، وهذه المرة يتوقف عند العالم الإنجليزي طوماس ويلس

(40) Canguilhem, Etudes d'histoire et de philosophie des sciences, Op-cit, (p. 296).

(41) Canguilhem, Etudes d'histoire et de philosophie des sciences, Op-cit, (p. 296).

(٣٩) حمد هشام، في مفهوم تاريخ اختلافي في فلسفة العلوم عند جورج كانغيلام، مرجع سابق، (ص / ٧٣).

من القلب مجرد عضلة من العضلات، بل هو مجرد عضلة مقعرة تعمل على ضخ الدم إلى الأعضاء⁽⁴²⁾.

هذا الوصف الذي جاء به ويلس هو الذي جعله يملك حقوق مفهوم المنعكس، ولتأكيد ذلك يأتي كانغيلام بنص لويلس من كتابه الذي كتبه باللاتينية «في الحركة العضلية»، (De motu musculari)، وسنورده نظراً لأنه يمثل وثيقة مهمة لتحديد مفهوم المنعكس، حيث يقول فيه: «تتضمن كل حركة الجوانب الثلاثة التالية: أولاً منبع الفعل (l'origine de l'action)، ومعناه إشارة للحركة الأولى التي ستقام، ومجال حدوثها المخ أو المخيخ، ثم ثانيًا المثير (l'excitation)، وهو الانتقال عبر الأجزاء المتحركة بداية من الحركة الأولى، وهي تنتقل عبر الأعصاب كما تنتقل الأنفاس التي تسري فيها، أما ثالثًا فهي قوة الحركة في حد ذاتها (mobiles du mouvement commence)، من خلال تلك الأنفاس التي تعمل على التحريك بالتمدد أو التقلص، وهذه الثلاثية هي التي تكون تلك الأنواع المتعددة من

الضبط لا يمكن استشفافه إلا من خلال أعمال ويلس.

صحيح أن هذا المفهوم لم يكن لضبط لولا محاولات سابقة عملت على فهمه والاقتراب من طبيعة عمله، خاصة تلك التجارب التي كان يجريها علماء الأعصاب في القرن السابع عشر، لكن لم يكن لهم شرف امتلاك مفهوم المنعكس، لذلك في المقال الذي تضمنه كتاب كانغيلام «دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها» (Etudes d'histoire et de philosophie des sciences) يباشر حديثه عن المنعكس من ويلس، متجاوزاً كل المراحل التي سبقته بما في ذلك مواطنه ديكارت؛ لأن القرن التاسع عشر هو من ابتكر مفهوم المنعكس، وعمل على تنقيحه من التصورات الغائية رغم أنها كانت في بعض الأحيان تعترض طريقه، فالمنعكس لم يعد مجرد حركة فيزيولوجية مهيمنة عليها آلياً أو حتى غائياً، أو جزءاً من نشاط شامل ناتج عن حركة القلب وتدفق الدم في الشرايين، بل إن الترشد بالتجربة المصاغة مع ويلس، تفرض الإقرار بأنه حركة موضعية، لا يمكن إلا أن تسعفنا في حالات طارئة، تؤخذ مأخذ التأقلم للمحافظة على الحياة، وتجعل

(42) Canguilhem, La Formation du Concept de Réflexe aux 17ème et 18ème siècle, op-ct, (p. 61).

في ميدان تاريخ العلوم، وهو الاعتراف الفكري بالأبوة لمن يستحقها، حتى وإن كان أحد آخر يستحق لأن يكون أبًا، كما أن نظرية ويلس أكثر تطورًا من نظرية ديكارت، ويكفي أن نحدث مقارنة بين نص ويلس الذي أورده في كتابه (De motus musculari)، وما أورده ديكارت في كتابه (traité de l'homme)، أو كتابه (traité des passion) الذي ذكر فيهما المنعكس⁽⁴⁴⁾، وبذلك استطاع ويلس أن يضبط مفهوم المنعكس متفوقًا في ذلك على ديكارت.

لكن السؤال الذي نطرحه على كانغيلام هو: لماذا تفوق ويلس على ديكارت في الكشف عن مفهوم المنعكس؟ وهل يمكن للتقنية أن تحدث فرقًا بين الدراستين؟

يعتبر كانغيلام بأن ويلس كان كيميائيًا؛ لذلك نجده يستعمل مصطلحات التشريح مطعمة بالتطور الكيميائي لذلك العصر⁽⁴⁵⁾، فقد كان يتصور النفس الحيوانية كمادة قابلة للاحتراق، متفجرة ولدنة،

الحركة، ويختلف الوضع بينها بحسب ما يميز كل واحدة منها، فمنبع الحركة أو مبدؤها تكون عادة صادرة عن المخ، مع مصاحبتهما للرغبة والمبادرة، وتكون تلقائية، أما تلك الحركة التي يكون منبعها المخيخ ... هي حركة طبيعية أو لا إرادية، لكن كلا الحركتين يجب أن يتوفر فيهما مثير، الذي يكون ابتدائيًا، كما هو مثلًا حال الرغبة بنزوعها تحاول أن تصل إلى الحركات التي تحققها، كذلك كما يحدث بصورة عادية في الطبيعة، وهي مهام طبيعية وحيوية، وعندما يكون هذا النوع من الحركة معاكسًا لأنها تبعت إحساسًا سابقًا، فإنها تعود مسرعة إلى نقطة الانطلاق، فمثلًا دغدغة خفيفة للجلد تثير حكة لهذا الجلد، والتهاب منطقة ما قبل القلبية (précordiale) تثير نبضًا وتنفسًا أكثر سرعة⁽⁴³⁾، هذا التعريف الذي أعطاه ويلس لمفهوم المنعكس لا يمدح مجالًا للشك في أنه كان واعيًا لحقيقة هذه الحركة، وبذلك يعترف كانغيلام لويلس بالأبوة الحقيقية للمفهوم، والاعتراف عنده من واجبات مؤرخ العلوم المخلص لبحثه «إنه أول واجب

(44) bid, (p. 69).

(45) bid, (p. 59).

(43) bid, (pp. 67-68).

(٣) المرض كمفهوم إيجابي للحياة:

يستمر كانغيلام في تحليل علاقة الحياة بالمفهوم وهذه المرة يطرحها ضمن مفهوميين بيولوجيين وهما السوي والمرضي، لقد كان كتاب كانغيلام «السوي والمرضي» الكتاب الأساسي الذي وضع فيه صاحبه حدوداً بين الحالة المرضية (pathologique) والحالة السوية (normal)، وظهرت فيه الحياة كمفهوم غامض دون هذين الحدين الأساسيين، وسنتحدث هنا عن المرض كحد سلبي بالمفهوم الطبي في معادلة الحياة، وسنرى كيف تغير هذا المفهوم في نظر كانغيلام من مفهوم كمي إلى مفهوم كيفي.

فإذا كان المرض عبارة عن الشك في قدرة الأعضاء على أداء وظيفتها بشكل طبيعي، فإن هذا الشك ليس حصيلة معرفة، وإنما هو عبارة عن شعور طارئ ينتاب الذات المريضة، لكن عندما أقول أنا لست مريضاً، ولدي دلائل على أي بصحة جيدة، فهذا الحكم يمكن أن يشمل الصح أو الخطأ، لأنني ربطت الصحة هنا بالألم، وعدم وجود الألم لا يعني غياب المرض، بل يمكن أن يكون هناك مرض صامت لا يكشف عن نفسه

كما يأتي على ذكر البارود لوصف حالة الاحتراق في العضوية، والحياة عنده في حركتها تشبه الضوء ... أي إنه يحاول أن يؤسس بيولوجيته على تقنية مختلفة تماماً عن تقنية ديكارت⁽⁴⁶⁾، أما ديكارت فقد كانت مصطلحاته البيولوجية متأثرة بنظرته الميكانيكية للكون؛ لأنه لا يمكن لأي حركة أن تتم في نظره، سواء في أجسام الحيوانات أو في أجسامنا، إذا لم تكن هذه الأجسام تتوفر على أعضاء وأدوات تمكنها من أداء هذه الحركات، وهو وصف يظهر التأثير بالآلة التي كانت سائدة في عصر ديكارت، وهي فيزياء بسيطة مقارنة بالعصر الذي كان فيه ويلس.

وبهذه المقارنة التي قام بها كانغيلام بين ديكارت وويلس تثبت نسبة مفهوم المنعكس للثاني «ومهما كان فإن ديكارت خطأ بعض الخطوات على طريق تكوين مفهوم المنعكس لكن ويلس استطاع أن يخطو كل الخطوات»⁽⁴⁷⁾.

(46) bid, (p. 62).

(47) bid, (p. 78).

درجته وطبيعة الحالة التي تعيشها هذه الذات، وكل فهم للحياة يجب أن يستند على هذا الشعور، لذا كانت فردانية المرض العضوية والاجتماعية، من الأمور التي استدعاها كتاب «السوي والمرضي»، الذي يمكن تقسيمه إلى قسمين إذا أخذنا المرض كمعلم لهذا التقسيم، فنجد أن القسم الأول من الكتاب يطرح المشكلة وفق أبعادها التاريخية، بداية من القرن التاسع عشر، ليتبين لكانغيلام المفهوم الذي كان سائداً بأن «ظاهرة المرض في داخل العضوية لا يمكن اعتبارها زيادة أو نقصاناً في الكمية»⁽⁴⁹⁾، ذلك الموقف الذي حرص أوغست كونت على تأكيده، ليأتي بعده ك.برنارد (Cl. Bernard) ويعمل على مساندة هذا الموقف، أما الجزء الثاني من الكتاب فيبحث في مفهوم المرض، ويسائل هذا الموضوع على مستوى المفاهيم المعيارية للبيولوجيا، وسيعود كانغيلام كذلك في تحليل هذه القضية إلى الدوغما (Dogme) التي كانت سائدة وهي الدوغماتية الوضعية في القرن التاسع عشر⁽⁵⁰⁾.

إلا عن طريق الكشف العيادي، بذلك يمكن القول بأن المرض يمكن معاشته لكن يصعب ضبطه مفهوميًا، لأن حصوله يغير من طبيعة الحياة للشخص الذي يصاب به، وهنا نستحضر قول بيار ميشري (P.Macherey) في هذا الشأن، حيث يقول «بشكل عام إن معاناة المرض تجعل الحياة سيئة»⁽⁴⁸⁾.

فإذا كان المرض عبارة عن الشك في قدرة الأعضاء على أداء وظيفتها بشكل طبيعي، فإن هذا الشك ليس حصيلة معرفة، وإنما هو عبارة عن شعور طارئاً يتتابذات المريض.

إنَّ تحديد مفهوم المرض حسب كانغيلام لا ينطلق من خبرة طبية أو معرفة بيولوجية، بل ينطلق من تجربة ذلك الشخص المريض، الذي يعيش وحده تلك الحالة دون غيره، لذا أصبحت ذاتية المريض مهمة في ضبط مفهوم المرض، بل هي المرجعية التي تحدد من خلالها

(49) Canguilhem, Le normale et le pathologique, Op-cit, (p. 14).

(50) Le Blanc, G. Canguilhem et les normes, paris, P.U.F, 2édition, (2000), (p. 29).

(48) Macherey, de Canguilhem à Canguilhem en passant par Foucault, in G. Canguilhem, philosophe, historien des science, Paris, Albin Michel, (1993), (p. 287).

القدرة على التأقلم مع هذه الوضعيات، بمساعدة المعيارية البيولوجية، التي تخلق عن طريق تجديد المعايير، فهي نوع من إعادة ترميم النظام أو البرنامج الذي يضبط سلوك العضوية، فهذا الشكل من الانتقال الذي يحوّل العضوية من الاعتماد على معيار إلى الاعتماد على معيار آخر، يحيلها على نوع آخر من العيش إنه «السواء» هذه الحالة هي نوع من الإعادة أو المراجعة الذاتية (d'irréversibilité)، ولا ينحصر هذا العمل على العضوية فقط بل يُسهم المحيط الذي تعيش فيه هذه العضوية على تخطي هذه الحالة السابقة من أجل بعث حالة جديدة⁽⁵²⁾.

لقد أصبح مفهوم المرض مع كانغيلام له بعد إيجابي، تجاوز به فهمنا الكلاسيكي لهذه التجربة، التي كرستها النظرة الطبية التشاؤمية لوضعية المريض، كما تجاوزت المفهوم الوضعي للمرض التي انحصرت في زيادة أو نقصان كمي؛ لأن العلم لا يستطيع

لكن الفهم الجيد لطبيعة المرض في كتاب كانغيلام «السوي والمرضي» يحتم علينا السعي من أجل تفكيك الشروط الممكنة للذاتية البيولوجية؛ لأن كانغيلام يرفض تحديد الذاتية البيولوجية أو العضوية انطلاقاً من التحديد الاجتماعي لهذه الذات، بل العكس من ذلك؛ لأنّه إذا استندنا إلى هذه المعايير الاجتماعية المصطنعة، فإننا نعمل على تغليف حقيقة الكائن الحي، الذي تحكمه شروط مغايرة لتلك الشروط التي تحكم الذاتية الاجتماعية⁽⁵¹⁾.

إن فردانية الكائن الحي كما هي موجودة في الحياة، موجودة في تجربة الكائن المريض، هذه التجربة التي لا يمكن أن تعيشها إلا تلك الذات المصابة، والتي غير المرض من معاييرها، وهو لا يكون دائماً نافعاً أو معارضاً للحياة، بل هو عامل من عوامل تقوية عزيمة هذه العضوية على الاستمرار.

إن حضور المرض كمفهوم مُشكّل لقيم الحياة البيولوجية دليلاً على التنوع الذي لا مفر منه، فهو متأصل في تكوين العضوية، ولهذا تحاول العضوية امتلاك

(52) Pénisson, Le vivant et l'épistémologie des concepts, essai sur le normale et le pathologique de G. Canguilhem, L'Arman-tan, op-cit, (p. 99).

(51) Canguilhem, Le normale et le pathologique, Op-cit, (p. 173).

إنه عمل ومجابهة للمستقبل، وإذا رأت نفسها بأنها تسير نحو نهايتها، فهي تغير من إستراتيجية حياتها.

إن المرض حالة من الحالات الطبيعية للعضوية عند كانغيلام، إنَّها عملية نقل العضوية من وضعية الخمول إلى حالة النُّشاط، وهذه الحالة الجديدة هي من خصائص الكائن الحي.

إن المرض هو إخضاع العضوية لاختبار الحياة، وسلوكُ هذا الطَّريق نحو تلك الحالة المرضية، التي تجعلها تنتقل من حالة إلى حالة هو نوعٌ من الليونة والمطاوعة، كما يفعل الشَّتاء بجميع أوراق الشجر، يسقطها لكي تنبت في مكانها أوراقًا أخرى، وهذا فقدان لهذا التوازن الديناميكي الذي يحدثه المرض يمكنه أن يعيد توازنًا جديدًا، فالمرض في كل الحالات، يسهم في بناء تجربة الكائنات العضوية، وهذه الفكرة مدعومة بالتفكير البيولوجي الذي يقودنا إلى استنتاج نفس النتائج، فهو ينظر للمرض كبديل طبيعي لتجربة مستحيلة، وتبثُّ في فعالية

ترجمة تلك المعاناة التي يعيشها المريض مع مرضه إلى طبيعة كمية، فالطب بحاجة دائمة إلى مساعدة من طرف الذات التي تعاني تلك الحالة المرضية، وبذلك يمكن تصور المرض أنطولوجيًا لنعرف كيف يزيد أو ينقص.

إن المرض حالة من الحالات الطبيعية للعضوية عند كانغيلام، إنَّها عملية نقل العضوية من وضعية الخمول إلى حالة النُّشاط، وهذه الحالة الجديدة هي من خصائص الكائن الحي، حيث يقول كانغيلام «إن الحياة تحاول دائمًا الانتصار على الموت، ويمكن أن نشبه هذه العلاقة بعلاقة جدلية، الحياة في مقابل الكون المتغير»⁽⁵³⁾، ويمكن هنا أن نتلمس روح الحيوية هنا عند كانغيلام، والمستمدة من بيشا (Bichat)، وهي امتداد لتلك النظرة التي ترى بأن الموت هو الباعث على الحياة، هذه الإحيائية التي لا تفسر المرض من منطلق أنه مصير كل عضوية، هذه الحالة التي يؤدي بها إلى الموت المحتوم، بل العكس فهي تمثل آلية من أجل مقاومة هذا الجمود (l'inertie)،

(53) Canguilhem, Le normale et le pathologique, Op-cit, (p. 173).

فيها الحياة، والحياة باستقرارها عند تلك القيمة فهي تتصرف بمعيارية.

إن الدوغماتية الوضعية التي وسمت مفهومنا للمرض، قام بتكريسها عند كانغيلام كلُّ من أ.كونت وك.برنارد، الذي كان يؤخذ عندهم مفهوم المرض انطلاقًا من الحالة السوية (كونت)، أو أن السوي أفضل حالة ممكنة مختلفة عن المرض (برنارد)، فكلاهما ينطلق من نفس المبدأ، فيرفعان من الحالة المعيشة للمرض إلى حالة عقلية، سواء كانت مصاغة صياغة مجردة عند الأول أو تبحث عن تجسيد في طريقة العلاج عند الثاني، وكلاهما شكل دوغماتية في فهم العلم لطبيعة المرض، هذه الدوغماتية التي وجدت سندها في تسبيق الفيزيولوجيا على الباتولوجيا، وتري بأن في الحالة الباتولوجية ما هي سوى تغير كمي للظاهرة الفيزيولوجية، فالتمييز في الكمية بين الصحة والمرض قد انتهى⁽⁵⁶⁾.

لقد أصبح هناك فهم جديد لطبيعة المرض ودوره في الحياة؛ لأن المرض يلعب دورَ الداعم والمعلم

السوي وتقبله لمختلف التغيرات، لهذا ركز كانغيلام في الجزء الأول من كتابه «السوي والمرضي» على النقد الموجه للطب والبيولوجيا وطريقتهم في فهم طبيعة المرض، أين قام برفض الكثير من آليات العلاج، التي تنظر للمرض كعائق أمام استمرارية الحياة، «إن المرض لا يشكل أي قلق بالنسبة للرجل الصحيح؛ لأنه أصبح موضوعًا يدرس في مخابر الصحة ... فالمفهوم الحقيقي للظاهرة الحيوية السوية يدخل ضمن تعريفها المرض»⁽⁵⁴⁾، وعلى هذه الأرضية يمكن فهم كل الحالات المرضية، وهذا فيه إشارة ضمنية من طرف كانغيلام إلى أن القياسات الكمية التي تقدمها التقنية للحالات المرضية بعيدة عن فهم جوهر المرض؛ لأنه في الأساس تجربة شعورية فردية، فقدت فيها العضوية معاييرها المعتادة التي كانت تحافظ بها على صحتها، والصحة هي معايير متميزة ومتغيرة، ولو أنه هناك تماثل عند كانغيلام بين المعيار (norme) والقيمة (valeur)⁽⁵⁵⁾؛ لأن المعيارية تترجم القيمة التي تستوي

(54) bid, (p. 14).

(56) Canguilhem, Le normale et le pathologique, Op-cit, (p. 14).

(55) Le Blanc, G.Canguilhem et les normes, Op-cit, (p. 33).

المرض يمثل معلماً من خلالها تضبط العضوية مساراتها، وتحدد نقاط تموقعها أمام التحديات التي تواجهها.

لقد أصبح هناك فهم جديد لطبيعة المرض ودوره في الحياة؛ لأن المرض يلعب دور الداعم والمعلم لهذه الحياة، يجعلها من خلال إخضاعها لاختبارات متعددة إلى تحسين أدائها، وإيجاد نموذج جديد للتأقلم.



خاتمة

إن المفهوم في تاريخ العلوم عند كانغيلام يتسم بالصيورة، والتمييز بين المفاهيم لا يتم انطلاقاً من فرق في موضوع كل مفهوم ولا في مصدره، وإنما انطلاقاً من خصوصية كل واحد منها، فمن حيث المصدر هو واحد وهو العقل، ومن حيث الموضوع فإنّه يختلف باختلاف الحقل الذي يشتغل فيه كل مفهوم، والممارسة النظرية للمفهوم، باعتبارها المنشئ للمفاهيم والمرتبة لها عن طريق التعريف، لا يمنحها أحقية النقل من مجال إلى آخر؛ لأنّه في المرحلة الأولى للاستعمال

لهذه الحياة، يجعلها من خلال إخضاعها لاختبارات متعددة إلى تحسين أدائها، وإيجاد نموذج جديد للتأقلم، وهنا يعود بنا كانغيلام إلى أطروحة طالما أعجب بها في مراحلها الأخيرة من تطوره الفكري، وهي أطروحة برغسون في كتابه «التطور الخلاق»، (volition créatrice)، فيقول: «إن الحالة المرضية يجب ألا تؤخذ على أنها حالة فيزيولوجية فقط، بل يجب النظر إليها من جانب آخر حيوي (vital) ... وهنا يمكن استرجاع أطروحة برغسون، فليس هناك فوضى، وإنما هناك استبدال (substitution) أمر بأمر آخر، لكي لا يجعلها ذلك تعاني»⁽⁵⁷⁾.

إنّ العضوية تسعى دائماً للتمسك بحالتها السابقة؛ لأنها تظن بأنها ستحافظ به على نفسها، وأي تغيير هو محاولة انتقال من الاستقرار إلى اللا استقرار، وتحاول جاهدة التمسك بنفس المعايير، وتعتبرها الوحيدة المتاحة، في هذه الحالة فإن العضوية سيصيبها المرض حتماً، ليكون دافعاً لها من أجل التغيير، لذلك يبقى

(57) bid, (p. 128).

الاكتشاف، ومؤرخ العلوم هنا مُطالِبٌ بتجاوز هذا الصخب المتعمد في بعض الأحيان، والذي تحدّثه الأيديولوجيا من تحديد جذور المفهوم وإلى من تسند له الأبوّة في استعماله، كما أنه ليس كلُّ مفهوم متداول صحيحًا، فقد تغيّر الكثير من المفاهيم مدلولاتها بجهد يقوم به المؤرخ من أجل تصنيفها بين الإيجابية والسلبية، خاصة في مباحث علوم الحياة.

لا هم للفكر إلا بإبداعه الذاتي الذي يتخذ من المفهوم كعقال للمعنى وإثبات للكشف، ولكن في حالة البحث عن الاستقلالية فإنّ الفكر يجد نفسه مكبلاً بعلاقات نسجها بمفاهيمه المختلفة، والتي لا يستطيع فيها الفصل بين الصحيح والمزيف، هذه العملية قد يضيع فيها المالك الحقيقي للمفهوم في غمرة البهرجة التجريبية والاندهاش الفكري من



مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studie